مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـــــرام
التاريخ : ١٩٧٧/١/٢٣

# شـــاهـد عيـــان

**كنت أوثر ان أنتظر بعض الوقت كي [ أرى ] ما حدث بدقة ووضوح شديدين .. فالذى حدث شيء غريب . ليس غريبا علينا كمصريين فقط ، ولكنه غريب على انا شخصيا : انسان عائش ويعيش ويتنفس قضية شعبه ، يحبه ويشـيد به وينقده ، يسخر منه أحيانا ويمجـده ، وكل ذلك عن عاطفة حب ، لا اعرف لها مصـدرا ولا تفسيرا ...**

غريب على لانى أصلح ان اكون شاهد عيان لما حدث ، فقبل ١٨ يناير بيوم ، أصبت بوعكة ، كان على ان استريح بعـدها لبضعة أيام ، ولكنى ما كدت أخلد للراحة ، حتى دوت أصـوات المظـاهرات فى رأسى ، وانتزعتنى من فراشى وأرسلتنى الى الاهرام ، أعرف كنه ما حدث ويحدث .. ولم اكد استقر مع الزملاء المحررين حتى بدأ قذف الطوب على مبنى الاهـرام ، ثم هبطت مع من هبط ، فوجـدنا الواقعة الكبرى أمام مبنى أخبار اليوم ، حربا طوبيـة وزلطية يقوم بها اناس معظمهم صبية ما لبثت ان تطورت الى احراق سيارة خاصـة جـديدة كانت تقف امام مبنى الجريدة ، ثم ما لبثت الاكشاك الخشبية المقامة فى المنطقة ان قلبت وأحرقت ثم قذفت كرات ملتهبة منها على مخـزن اخبار اليوم للورق ، المجاور تماما لجراج الاهرام والمخزن الرئيسى للوقود به .

كانت الرياح شديدة ، واندلعت النار فى المخزن بطريقة مروعة ، وبدأ عمال جراج الاهرام يسلطون عليها خراطيم المياه لاطفائها ، ولكن المظاهرة كانت قد اختفت ، وسمعنا أصواتها تستدير لتكرر نفس العمل فى الاهرام .. والوضع فى الاهرام أخطر ، لان واجهته الامامية كلها زجاجية ، وقد كسرت كثيرا من الواحها ، بمعنى انه كان ممكنا لاى عابر سبيل ان يدخل الى المبنى نفسه ويشعل النار داخله .

لم تكن هنـــاك قوات بوليس على الاطـــلاق ، كنا فقط مجموعة من العاملين بالاهرام نقف فى الصالة السـفلى الرئيسية فى انتظار الهجوم الذى بدأت بشائره بالحجارة .. وهنا قررت أن ادافع عن المؤسسة التى اعمل بها ، ان من لا يدين بالولاء للمؤسسة التى يعمل فيها ، ولبيته ولقريته ولاهله ولاصدقائه ، لا يمكن ان يدين بأى ولاء لوطن أو للشعب .. وانا لا اخاف من الشعب حتى وانا أراه من خلال الزجاج المكسور مجموعات متنمرة تنهال على الزجاج بالحجارة والحصى ، وبأى مما قد يقع فى يدها .

وهكذا وجدت نفسى اخرج من خلال لوح زجاجى مكسور وقد قررت ان اواجه هؤلاء ( الصبية ) و ( الشمحطية ) ، ليس جراة ولا شجاعة ، وانما اعتمادا على احســـاس داخلى اكيد ، ان من لا تخاف منه لا يمكن أن يخيفك .. رفعت يدى اطلب ايقاف اطلاق الطوب .. عرفنى بعضهم فأمر زملاءه بالكف عن القاء الطوب .. وفجأة وجدت نفسى محاصرا بما لا يقل عن مائة وخمسين انسانا ، لم ارهم من قبل ابـــدا .. انـــا ارى المصريين فى الشـــــارع ، وفى الاوتوبيس ، وفى كل مكان ، ولكن هـــذه وجوه لا أعرفها ابدا .. وجه آخر لمصر ولصبيانها وشبابها وعمالها وطلبتها لم اشاهد لهم مثيلا .. وجدت احدهم يندفع ناحيتى فى محاولة للاعتداء على ، امسكه زملاؤه .. الحقيقة بدأت احس بالخوف.. انا الان فى قلب معمعة لم افكر لحظة قبل خوضها .

من الممكن ان اقتل فعلا ، فلا احد هناك يدافع عنى ، لا بوليس ، لا احـــد ، كلهم جاءوا يهاجمون الاهرام كما هاجموا الاخبار ويحرقونها .. وحرق الاهرام أسهل .. فواجهة المبنى الزجاجيـــة التى تكسرت كانت تسـمح لهم بالمروق خلالها واشعال النار فى الدور الاول ، ومن ثم فى المبنى كله ، وهذا معناه ضياع مؤسسة بذل شعبنا الجهد وملايين الجنيهات والخبرات فى اقامتها .. وانا الان فى قلب مجموعة من الناس الذين خرجوا ، لا ادرى من اين ، والذين لا اعرف ماذا يريدون .. قلت : عايزين ايه ؟ .. وجدت وجها مثلنا ضخما مربوطا راسه بمنديل يصرخ فى اذنا جمانين .

قلت : وهل ستاكل بحرق الاهرام ؟ .. قال : لا ولكنكم تضحكون علينا بكناباتكم .. انتم تكتبون ضدنا .. قلت بهدوء تعمدته : انت مخطىء ، فاذا كانت ثمة وسيلة لكى ناكل وتعمل وتكسب فهو ان تتيح لنا ان نطالب لك على صفحات الاهرام بهذه الحقوق كلها .

قال : انتم لا تفعلون .. قلت : نحن نفعل فقط انت لا تقرأ .. قال : انا لا اعرف القراءة .

قلت : نحن نطالب ايضا بحقك ان تقرأ وتكتب .

قفز طالب وقال : نريد صحافة حرة .

**قلت : وهل الطريقة ان تحرقوا الصحافة لتكون حرة .. ؟**

**قال واحد طويل وضخم : اهتف معنا تحيا الصحافة الحرة .**

**هتفت معهم : تحيا الصحافة الحرة .**

**هتفوا بعدها لى .**

**وحاولوا حملى على اعناقهم .**

**كان هدفى ان ابعدهم باى طريقة عن المبنى وعن فكرة الحرق وقد بدت لى سهلة جدا يكفى ان يعود غضبهم مرة آخرى ليبدأ حريق لا يعرف سوى الله مداه .**

**قلت : والان .. ارجوكم .. انصرفوا .. ودعوا الاهرام المبنى ودعوا الاهرام الصحيفة ودعونا نكتب .**

كان الاستاذ يوسف السباعى يطل على المشهد من مكتبه وكان مشفقا على مما قد يحدث لى وارسل لى موظفين بحمباني ويعودان بى الى الجريدة .. ولكنى بعد لم اكن قد استانست الوحش الذى ينطلق من الوجوه ، وكانوا هم بعد لم يشفوا غليلهم لا من النقاش معى ولا من اصابة الاهرام باضرار بالغة . المسألة ليست اسعارا فمن كانوا امامى جميعا اقل مستوى من ان تمسهم ارتفاع اسعار البوتاجاز او البنزين او السكر الحر . المسألة تراكمات قديمة ، المسألة ان هؤلاء الناس لا يحسون بانتماء لبلدهم او لمؤسساتهم او لصحافتهم او حكومتهم .

كنا فى مظاهراتنا أيام كان الانجليز يحتلون مصر لا نحرق ولا نخرب الا فى القليل النادر فقد كان الاحتلال يجعلنا نحس ونحن نستظلص البلد ان البلد بلدنا وأننا ننتمى لها وانها ملكنا ومطلوب ان نخرج المحتل منها! .
هذه اجيال نشأت لم تر ارضها محتلة ولا استخلصت القاهرة من بين انياب ثكنات قصر النيل الانجليزية . مصر عندهم هى لقمة العيش فقط ، ان توافرت كان بها والا هاجروا ومن لم يستطع فعليه وعلى سكانها أجمعين يتهدم المعبد .

**احتد النقاش مرة اخرى واستعملت كل ما وهبنى الله من قوة منطق لاقنع هؤلاء الناس ان هـذا المبنى الذى يقذفونه والذى يريدون حرقه انما هو مبناهم ومبنانا ونحن لهم وهم لنا . أقنع وموظفو الاهرام يجذبوننى الى الداخل وانا اقاوم فقد أحسست انى اخوض معركتى الحقيقية . اقناع هذه الاجيال الضائعة الجديدة ان مصر للمصريين كلهم وانها ملكهم قبل أن تكون ملكا لحاكم أولمسئول وانقسموا.**

بدا بعضهم يتحرش وقد أحس بمنطقه يتهاوى بينما الحقد الذى فى قلبه لم يخمد بعد . والبعض المتعلم منهم بدا عملا يحس انه انما يقوم بعمل مجنون لا جدوى منه .

**ولا أدرى كيف حدث هذا .**

ولكن الانسحابين تما فى نفس الوقت .

فلولهم انسحبت ودخلت الى حيث جاءت من عشش الترجمان [ أفقر أحياء القاهرة المجاور لافخم مبنى فى القاهرة ] .

وانا ايضا بجذبت الموظفين مدت الى المبنى .

والمهم ان الاهرام لم يقذف باللهب ولم يشتعل .

ولكن المهم الاكثر . رغم تأكدى التام من ان هناك أناسا اندسوا لتخريب مصر ، الا أن الارض كانت ممهدة وجاهزة ..

المهم وقد نتخذ اجراءات بوليسية [ ضد ] المخربين .

**ولكن الاجراء الاعظم هو ما يجب أن نتخذه ( مع ) اجيالنا الشابة الجديدة فهم فى حالة ضياع فكرى وثقافى وسياسى ، فى حالة يرثى لها ، وللاسف نحن نتخذ كل الاجراءات الاقتصادية والاصلاحية ونتحدث صباح مساء عن الاقتصاد ولكنا اهملنا الانسان تماما وبالذات الانسان الشاب الذى ضيعناه طويلا فوجد من يستغلونه .**

لن ينصلح انساننا اوتوماتيكيا باصلاح اقتصادنا وانما ينصلح اقتصادنا بصلاح انساننا والدليل بسيط ان كل حوادث التخريب تمت فى المدن ولم تحدث حالة تخريب واحدة فى قرية واحدة من قرى مصر ذلك لان الانسان هناك لا يزال ينتمى الى الارض والتراث والشعب الانسان هناك هو الانسان المصرى الذى يكاد يكون الوحيد الذى ينتج بطاقته كلها وتعيش المدينة ، كل مدينة عالة على انتاج الفلاح المصرى من قطن وقمح وأرز وفول ولحوم وبيض وألبان . جائع ولكنه يعطى ، حائر ولكنه يورد الاهذية والجلود . جاهل ولكنه يعيش على اللغى ليعلم أبناءه ويدفع مهايا مدرسى مصر وجامعاتها .

ان الموضوع أكبر من حوادث شغب جرت على اثر رفع أسعار .

ان الموضوع هو موضوع المدينة المصرية كلها .

والموضوع هو موضوع مصر كلها .

**وبصراحة واقولها بوضوح شديد ، ما لم يدفع العرب البتروليون ثمن الدم والعرق والجهد المصرى الذى اريق ليخزنوا بلايين البلايين فى بنك أوروبا وأمريكا وينقذوا اقتصادها فانى لا اضمن ما سوف يحدث غدا وقد اعذر من انذر .**

**بقلم : يوسف ادريس**